بلوتان

أبو التصوف الأوربي وتساعياته

بقلم الأستاذ أحمد الشنتناوى
ليسانسيه في التاريخ والآداب وليسانسيه في الأدب والاجتماع

ولد « بلوتان » حوالى عام ٢٠٥ م . ببلدة (ليكوبوليس Lycopolis) من بلاد القطر المصرى ؛ ولقد ذكر تلميذه وكاتب حياته « فورفوريوس » : أن بلوتان كان خجولا من كونه محبوساً فى هذا البدن ، وقد كان متأثراً جد التأثر بهذا الشعور ، حتى إنه لم يذكر شيئاً قط عن سلفه ولا عن أبويه أو محل ميلاده .

وكانت الفلسفة السائدة قبل عهد بلوتان هى فلسفة أبيقور وفلسفة الرواقيين ، وهى فى جملتها فلسفة مادية ، بل عريقة فى المادية ؛ إذ كانت تفسر النفس بأنها نتاج اجتماع الجواهر الفردة بعضها إلى بعض ؛ أما بلوتان فكان على نقيض المذهب المادى ؛ بل كان يعتقد أنه ليس للمادة أى وجود حقيق فهى عديمة القيمة ، وإنما النفس أو الفكر هو الذى يؤلف حقيقة هذا الكون .

ولهذا السبب لم يخلف لنا بلوتان صورة نعرف منها هيئته وتقاطيعه ؛ فهو لم يجلس قط لمصور أو حفار لينقش له صورته ؛ إذ كان يعتقد أنه من العبث أن يترك لأحفاده صورة لصورته الجسمانية ، وقد ذكر البعض أن أشهر مصورى ذلك العهد حضر إلى الفيلسوف وصنع له صورة متقنة ، ولو صح ذلك تكون هذه الصورة قد فقدت منذ أجيال بعيدة .

كان بلوتان ـ منذ حداثته ـ شغوفاً بمعرفة حقائق الأشياء وكنهها ، وكم كان يرغب فى الوصول إلى حل أسرار هذا الكون ؛ لهذا عكف على دراسة الفلسفة بالاسكندرية مدة طويلة ، ولكن لم تفده تلك الدراسة شيئاً ولم تشف نفسه منها ؛ وأخيراً عند ما بلغ السابعة والعشرين من عمره حضر محاضرات الفيلسوف أمونيوس Ammonius ، فلم يكد يستمع له حتى قال : « هذا هو الرجل الذى أبحث عنه » ; وظل مواظباً على سماع محاضراته إحدى عشرة سنة إلى أن ترك البلاد المصرية .

ونحن لا نعرف كثيراً عن تعاليم أمونيوس هذا ، ولكن يمكن أن نقول بالاجمال إن الأفلاطونية الجديدة قد ظهرت مع هذا الفيلسوف فى القرن الثالث الميلادى بالاسكندرية ؛ وهى عبارة عن تقوية دينية صوفية لأفكار أفلاطون ، فهى مزيج من مذاهب قديمة وجديدة ؛ وبلوتان هذا أكبر ممثل لهذا المزيج الجديد .

وكانت الاسكندرية ـ كما ذكرنا فى مقال لنا عنها فى «المعرفة» عدد أغسطس سنة ١٩٣٢ ـ فى أوائل القرن الثالث الميلادى مركز حركة علمية فلسفية عظيمة كانت باعثاً على إيقاظ الهمم وإيقاد الأذهان ، وقد ظلت هذه الحركة مشتعلة مدى أربعة قرون طوال ، تبادلت الفلسفة والدين فيها أثم مع ما يحتويانه من آراء ؛ وفى تلك المدينة كذلك احتكت المسيحية مع فلسفة الرواقيين وفلسفة أبيقور ومع فلسفة أفلاطون وأرسطو ، فشحذت الأذهان ، وقويت الجادلات ، وأخذت الكنيسة الكاثوليكية فى تدعيم معتقداتها بآراء وأفكار هى خلاصة محاورات ذلك العصر ؛ ونحن نرى صورة واضحة جلية للصراع بين المسيحية والأفلاطونية الجديدة فى القرن الذى أعقب وفاة بلوتان فى رواية «هيباتيا Hypatia» لمؤلفها شرلس كنجزلى ، وهى رواية جدير بكل مؤلف وفيلسوف أن يقرأها ، لأنها تصف لنا ذلك العصر الذى اشتهر بمنازعاته الدينية والفلسفية بدقة وجلاء .

والفيلسوف بلوتان له أثر عميق فى المسيحية ، وكتاباته تعد أعظم الأسباب التى هدت القديس أوغسطين ، كذلك يعتبر بلوتان أستاذاً للقديس أنسيلم Anselm ، والقديس توماس أكوينياس Aquinas ، وكلاهما قديس كبير وفيلسوف عظيم ، كذلك أثر بلوتان فى اسبينوزا عن طريق يهود القرون الوسطى ، ولا يخلو التفكير المسيحى الحديث من أثر بلوتان عليه ، فآراؤه ـ على الجملة ـ ممتزجة بالمسيحية منذ أقدم عصورها حتى الآن ، مع أنه لم يذكر شيئاً قط عن المسيحية ، ويعتبره كثير من تلامذته أنه كان موفقاً فى تفكير بقوة إلهية ، وأنه كان يأتى من الأفعال ما يعجز عنه سائر البشر .

وكان أتباع بلوتان ـ وبالأخص تلميذه بروكتوس Proclus ـ يهاجمون المسيحية بشدة ، ويرجع هذا ـ لحد كبير ـ إلى أن مذهب التجسد Incarnation الذى هو عماد العقيدة الكاثوليكية لا يمكن أن يتفق مع الأفلاطونية الجديدة ، كما يرجع هذا كذلك إلى العناد والسخرية التى أظهرها بعض رجال المسيحية المحافظين نحو تعاليم بلوتان ، إذ كانوا يعتقدون أن انتصار هذا الدين الجديد معناه هدم القيم الحقيقية للحضارة والتمدن ؛ وعلى الجملة فقد كانت الأفلاطونية الجديدة المحور الذى تدور عليه بقايا الوثنية ، فان الامبراطور جوليان ـ وهو من ألد أعداء المسيحية ـ كان من أتباع الأفلاطونية الجديدة ، ومن أكبر المشايعين لها .

ذهب بلوتان إلى روما حيث قضى هناك بقية حياته ، وأخذ فى إلقاء المحاضرات المختلفة المتنوعة ، وقد واظب على سماع هذه المحاضرات عدد كبير من نساء روما ورجالها من مختلف الطبقات ، وكان المستمعون يناقشون ويطرحون الأسئلة ويطلبون الاجابة عنها بحرية وجلاء ، لأن الغرض من كل هذه المحاضرات البحث وراء الحقيقة ، ولأجل تهذيب النفس وجعلهم خيرين ، لأن بلوتان وتلامذته كانوا يعتقدون أن الفلسفة والدين شيئان لا يمكن فصلهما عن بعض ، لذلك أراد بلوتان أن يوقظ فى الناس الناحية الروحية من حياتهم ، وقد قال

فورفوريوس ـ أشهر تلاميذه ـ : « إن غرض الفلسفة هو خلاص النفس » .

عاش بلوتان عيشة زهد وتقشف كما يفعل أغلب الفلاسفة الروحيين ، فهو لم يأكل قط لحم الحيوان أو شيئاً من منتجاته ، كذلك كان قليل النوم ، وكان لباسه فى غاية البساطة ، وكان يرشد الناس إلى طريق الخير والسواء دون أن يبغى من وراء هذا العمل أجراً أو شكوراً ، وقد قال فى إحدى رسائله : « إن من يبغى من وراء حياته الخيرة شيئاً غير تلك الحياة ، فإن ما يبغيه ليس من الحياة الخيرة فى شىء » .

وأخيراً توفى بلوتان بعد حياة كلها جهاد ونصب فى سبيل نشر مذهبه وتعاليمه عندما بلغ السادسة والستين من عمره بعد مرض طويل مضن ، ولقد حضر صديقه الطبيب استوشيوس Eustochius ساعة وفاته ، واستمع لآخر كلمات الفيلسوف الراحل،وهى:« إنى كنت أنتظرك منذ زمن طويل ، إنى أكافح وأجاهد كى أرد كل ما هو سماوى فى نفسى إلى ما هو سماوى فى الجميع » .

قام فورفوريوس عقب وفاة أستاذه بلوتان ، وأخذ فى جمع محاضراته ورسائله وهذبها ، ثم رتبها حسب الموضوعات فى ستة كتب ، وقسم كل كتاب إلى تسعة فصول : لهذا تسمى أعمال بلوتان باسم « Enneads » ، وهذه كلمة مشتقة من أصل يونانى بمعنى تسعة ، فلا مانع إذن من أن تسمى أعمال بلوتان باسم «التساعيات» ، وهى من بين أصعب الكتب العالمية، أولا لصعوبة لغتها اليونانية ، وثانياً لدقة ما بها من أفكار وآراء عميقة لا تخلو من بعض الغموض فى كثير من نواحيها ، ولقد وصف هذه التساعيات بعض تلاميذته — ممن كانوا يحترمونه ويقدسونه — بأنها «خشنة غير مفهومة،ومفككة غير مرتبة»،ومع ذلك ففى هذه التساعيات بعض صحائف هى آية فى دقة التفكير وسلامة التعبير .

ولقد رأينا أن نلخص لقراء «المعرفة» الغراء إحدى هذه التساعيات،وهى الخاصة بكلامه عن خلود النفس ليتبينوا منها نوع تفكير هذا الفيلسوف الكبير ، وإليك هذا الملخص :

« لو قال قائل : إنه من الممكن لمجموعة من الذرات أن تولد نفساً باتحادها (١) ، فإنه من السهل دحض ذلك القول ، لأن النفس منفعلة بذاتها ، وإن المنفعل من ذاته لا يمكن أن يكون ناتجا من أجسام لا انفعال لها ، والجسم البسيط لا يمكن أن يكون له حياة من ذاته من حيث هو جسم مادى ، لأن المادة خالية من كل كيفية ، فلا تعطى لنفسها أية هيئة كانت، كما أنها لا تضم نفساً فى داخليتها ، فلا شىء يوجد إذا لم يكن هناك قوة روحية ، لأن المادة فى جريان مستمر ، ولكان العالم يفنى سريعا إن لم يكن هناك سوى أشكال وهيئات جسمانية مادية ، ومن المحقق أنه لا يمكن لأى هيئة مادية أن توجد فى غياب النفس ، ونحن فى شك مما إذا كان للمادة أى وجود ما » .

(١) مشيراً هنا الى فلسفة أبيقور .

« لهذا لا بد أن يكون هناك شيء آخر من طبيعة أخرى له الوجود من ذاته ، وبدون ذلك فإن جميع الكائنات تختفي في العدم حيث لا رجعة لها من جديد ، ولكن هي النفس التي تعطي الوجود لكل ما في هذا العالم ثم تحفظ عليه هذا الوجود ، والنفس مبدأ الحركة تحرك نفسها وتعطي الحركة لغيرها من الأجسام المتحركة ، كذلك يجب أن نذكر أن الحياة التي للنفس هي حياة أبدية ؛ لأنها مستمدة من ذاتها ، ولو كان لكل الأشياء حياة لذهبنا هكذا على التوالي إلى ما لا نهاية ، ولكنه من الضروري أن تكون هناك حياة بدائية أولى ، كما أنه من الضروري أن تكون تلك الحياة أبدية غير فانية »

« وهنا كذلك نرى أن من اللازم أن يكون لكل شيء إلهي حياة من ذاته ، وأن يكون جوهره عدم التغير ، فلا هو محدث ولا هو قابل للعدم ، لأنه على هذا الاعتبار من أي شيء يحدث ، وإلى أي شيء ينتهي أمره ؟ »

« أما جزؤه الذي ينتهي أمره إلى الاختلاط بالعالم المادي (كالنفوس الحالة في الأجسام) ، فإنه لا يفقد طبيعته بهذا الاختلاط ؛ ولو أن هذا يكون عائقاً له من استكمال أو في كمالاته ، ولكنه يستعيد حالته الأولى من الكمال عند مفارقته هذه الأجسام المادية والرجوع إلى مصدره الأول »

« والنفس لا تدرك معاني الطيبة والعفة والعدل وما شابه ذلك من المعاني عن طريق الإحساسات ، ولكنها تدرك هذه المعاني الإلهية في نفسها وبنفسها ، فإنها بقوتها المفكرة ترى هذه الأشياء كامنة في أعماقها وكأنها التماثيل قد علاها الصدأ لتعاقب الدهور عليها ؛ فالنفس كالذهب الذي احتواه باطن الأرض لمدة طويلة حتى خبا وجهه فلا يدرك نفسه أنه ذهب وهاج ، ولكنه بعد ذلك ينفض عن نفسه الغبار الذي تكدس حوله ، فسرعان ما يندهش عند ما يرى نفسه نقياً وهاجاً ؛ فلو أن النفس تنقى ذاتها بذاتها لشعرت بعد ذلك أنها ليست في حاجة إلى أي جمال عرضي ، وأنها بذاتها كانت في أحسن الحالات وأطيبها ، فليجرد أي شخص نفسه من جميع أعراضه الدخيلة ، وليتفكر إلى نفسه على أنه قوة مفكرة ليس إلا(١) ، تعيش في عالم من الأفكار ، فسرعان ما يعتقد بأن نفسه خالدة أبدية ، فهو يدرك قوة العقل الأبدية ، وهي تتحول عن عالم الأشياء الفانية التي هي موضوع الحس ، ويصبح همها فقط التأمل في كل ما هو خالد أبدي ؛ فالنفس وكل ما تراه في عالم الأفكار سيكون براقاً منيراً مشرقاً بنور الحق الذي ينبعث من الله الذي ينير كل الأفكار بنوع من الحقيقة الإلهية ؛ فمن ذا الذي يشك إذاً أن شيئاً من هذا النوع له من ذاته مبدأ الحياة ، ولا يكون خالداً أبدياً ؟

---

(١) هذه هي بذور فلسفة ديكارت بعينها .

وإنه من الواضح كذلك أن النفس تعطى الوجود لذاتها قبل إعطائها الوجود للجسم الذى تحل فيه ، ولكن كيف تنزل النفس من عليائها حتى تستقر فى البدن ؟ »

« الفكر الصرف لا يتأثر بشيء ما، بل له حياة عقلية خاصة به ، فهو يسبح للأبد فى عالم الأفكار الأبدى ، لأنه ليس له أي باعث أو مشتهى . ولكن النفس مكونة من رغائب كما هى مكونة من فكر ، وبدل أن تظل ثابتة فى تأمل الأشياء فهى ترغب فى تقليدها ، لذلك هى دائمة الرغبة فى تقليد مظاهر الله الفكرية والحكمية ، ولكن لكى تسوس جزءاً من العالم يجب أن تسوس هذا الجزء بمفرده ، لذلك هى تنفصل عن نفس الكون وتحل فى جسم محدود ، ولكنها مع ذلك لا تتيه فى هيئتها المادية الجديدة ، بل تظل محتفظة بشيء آخر خارج عن المادة ، كما أننا نلاحظ أن حلول النفوس فى الأجسام معين على إتمام كمالات العالم » .

هذه هى إحدى تساعيات بلوتان قد ثابرنا على قراءتها مراراً وتكراراً حتى أمكننا أن نخرج بهذا الملخص الوجيز ، وهو فى جملته يدل على اتجاه تيار أفكار الفيلسوف بلوتان ، فهو قد تناول العناصر الدينية والفلسفية فى فلسفة سقراط وأفلاطون ، ثم أخذ فى تأكيدها وتدعيمها ، وقد بدأ بلوتان كلامه عن العالمين : المحسوس ، والروحى ؛ وكان همه هدم المذهب الثنائى ، وأن يثبت أن العالم الروحى هو فقط لب الحقيقة وجوهرها ، أما عالم المحسوسات فما هو إلا صورة ولدها العالم الروحى على مثاله وفق نظام عام شامل .

وقد ذكر بلوتان كذلك أن مصدر جميع الكائنات وكل ما هو حقيقى هو الكائن المطلق الفرد : وأن هذا الكائن غير متناه ، ولا يمكن تعريفه أو الاحاطة به ؛ فكل ما يمكن أن يوصف به من الأوصاف السامية يقصر عن إدراك حقيقته ، ولا يمكن أن يصدق عليه إلا إذا ذكرنا بجانب كل صفة منها « بل هو أعظم من ذلك » . كذلك تكلم بلوتان عن الثالوث، ولكن ثالوثه يختلف كثيراً عن ثالوث الكنيسة المسيحية ، فهو ليس مستمداً منها أو متأثراً بالأفكار المسيحية ، فالثلاثة الذين يكونون ثالوث بلوتان ليسوا أشخاصاً جسمانيين ، كذلك ليسوا فى مستوى واحد ، إنما الثانى والثالث فى هذا الثالوث الجديد أحط درجة من الأول وهما تابعان له، وغير ذلك من التفصيلات التى لا داعى لذكرها فى هذا المقال.

وكان من رأى بلوتان أن العالم الذى ندركه بحواسنا ليس هو فى الحقيقة إلا صورة ؛ وأن الانسان يعرف هذه الصورة بحواسه كما يعرف عالم الأنفس بعقله ، وأنه من الممكن للفرد أن يفهم الكائن المطلق ، لأن الانسان فى أعماق نفسه يؤلف مع هذا الكائن المطلق وحدة واحدة ، فاذا ما نظر فى أعماقه فانما ينظر إلى هذا الكائن المطلق غير المتناهى، وهذا الاتحاد مع الكائن المطلق هو ما يسمى بالتصوف ، وهذا ما حدا بالبعض أن يسمى تساعيات بلوتان الفيلسوف بـ « توراة التصوف الغربى » .

أحمد الشنتناوى